

الحضارة المصرية

في عهد الدولة القديمة

بحسب للمعروف الأثرى إريك بيت^(١)

للاستاذ أحمد نجيب هاشم

جغرافية مصر وأثرها

ليست هناك بلاد يمكن أن يتبع فيها أثر البيئة في طبيعة أهلها أكثر من مصر. فلفهم الحضارة التي قامت في مصر القديمة يجب علينا أولاً أن نصف المظاهر الطبيعية لهذا القطر تنقسم مصر قسمين لكل منهما ميزات خاصة : مصر العليا، ومصر السفلى . والأولى شريط من الوادي يمتد من رأس الدلتا أو القاهرة الحالية إلى الشلال الأول ، وهي مسافة يبلغ طولها ٥٤٧ ميلاً ، ولا يزيد عرضها في أى اتساع على اثني عشر ميلاً ، وقد لا تزيد في جهات على مائة ياردة . ويقع هذا الجزء في منخفض حوالى ثلثائة قدم عن مستوى الأراضي المحيطة به . ويرى فريق من الجغرافيين أن النيل هو الذى حفر لنفسه هذا الوادي العظيم أيام أن كانت الصحراء التي تحيط به غزيرة الأمطار . ويقول آخرون : إن هذا الوادي العبي كان بمثابة الخط الأقل مقاومة للياه المتجمعة في الجهات المرتفعة في الجنوب

عاش ساكن الصعيد في واد ضيق يحد أفقه من الجانبين صخور جيرية تقع في أعلاها الصحراء ، وهي أرض تكاد تكون عديمة الأثر في حياته . وقد قسم المصري الأرض إلى نوعين : الأرض السوداء ، وهو اسم أطلقه على وادي النيل بسبب لون تربته الداكن ، والأرض الحمراء ، وأراد بها الصحراء الرملية . وكانت معرفته بالممالك الأجنبية بسيطة إن لم تكن معدومة ، فكان يرمز إليها في لغته الهيروغليفية كأنها بلاد جبلية بالنسبة لسهل مصر المستوى . واتخذ المصري مجرى النيل مرشداً له في غدواته وروحانه ، فالشمال عنده هو الجهة التي يجري إليها النهر ، والجنوب

الجهة التي يجري منها . فكان يقول صعد أو نزل مع النهر بمعنى سار جنوباً أو شمالاً ، وعلى ذلك لما بلغ المصري نهر الفرات يبلاد العراق سمى ذلك النهر بذى المياه المنعكسة المجرى التي تنزل مع النهر أى تسير جنوباً بدلاً من أن تجري شمالاً . وليس هناك ما يدل على عزلة المصري القديم من اعتقاده هذا^(١)

أما في الدلتا فقد كانت الأحوال مختلفة كل الاختلاف إذ أن هذا الثلث المستوى والذي هو حديث التكوين نسبياً يكاد يكون خالياً مما يحدد أفق سكانه . ولابد أنه ظهر لهم كأنه سهل متسع يمتد حتى الأفق في كل الجهات لا تتخلله تلال ولا مرتفعات ؛ بيد أن شروط العمل على الأرض كانت شبيهة بدرجة كبيرة بمثلها في الصعيد

ولاريب أن اتساع الأفق أمام سكان الدلتا وانعدام صخور الصحراء مما يث شحور الحرية في كل جهة ، أتيح على عقولهم نتيجة مخالفة . وكان من سوء الحظ أن رسوب غرين النيل في الدلتا مضافاً إليه حاجة الزراعة جعلت أغلب المدن الفرعونية القديمة وراء علم الباحث ، ولذا لا يمكننا أن تقدر الدور الذي لعبه في تطور التاريخ المصري القديم

أما من حيث الجوف معروف أن الوجهين البحرى والقبلى يتمتعان بمجو جميل على العموم ، ويسقط المطر في الدلتا ويكاد ينعدم في الصعيد ، وقد ينهمر عليه سيل غزير مرة في كل عشر سنوات وتشتد الحرارة في الصيف وتزداد شدتها كلما اتجهنا جنوباً . هذه هي أهم المظاهر الطبيعية لمصر ، ولا يقل عنها أهمية موقعها الجغرافى ، وهي تحمى مدخل أفريقية ضد الغزو من جهات آسيا الغربية ، فقد كانت تلك الأجزاء على الدوام مركزاً للاضطرابات التي كانت أحياناً تشتد جداً إذا كان سكانها يميلون إلى الهجرة إلى دلتا مصر الخصبة ، وتكررت غزواتهم وكان لكل نتائج وقية . ولا شك أن هذه الغزوات حالت دون الاطراد في تقدم مصر . ففي كل مرة خرجت فيها مصر من الضربة التي أصابها استنفذ هذا الخروج كثيراً من نشاطها ، وكان من الممكن أن تستنفده في نيل تقدم حقيقى

ولم تكن الدلتا أسلم في جهة الغرب منها في جهة الشرق ، فهناك

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور ترجمة الدكتور حسن كمال (ص ٦)

(١) كان العلامة Eric Peet أستاذاً للعاديات المصرية في جامعة ليفربول وقد توفى في سنة ١٩٣٣

وادي النيل أو الفرات حيث الظروف أكثر مناسبة لها ، وإنما يمكننا أن نقول إن الزراعة وما تطلبته من صناعات تقدمت بسرعة بعد أن قامت في مصر وأخذت تؤثر في أخلاق الناس ونظمهم

أما الصيد وهو إحدى الوظائف الثلاث الهامة التي اشتغل بها الإنسان الأول فلم يلعب دوراً هاماً في الحياة المصرية . نعم يرجح أن الصحراء التي تقع على جانبي وادي النيل كانت تأوي كثيراً من الحيوانات التوحشة ، فهناك لوحة يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرات عن حملة منظمة أرسلت لصيد الأسود . ثم نرى في مقابر أشراف المصريين القدماء طول مدة تاريخهم مناظر تمثل أصحابها وهم يقومون بحملات لصيد الأسود والفهود والوعول مستعملين لذلك السهام . على أن الصيد كان ولا يزال عندهم وسيلة من وسائل الرياضة عند الأشراف ولم يتخذها الأهالي وسيلة للارتزاق ؛ فإن هؤلاء كانوا يحصلون على حاجتهم من اللحوم من طيورهم وحيواناتهم المستأنسة . وفي الوقت نفسه يظهر أن صيد الوعول وغيرها من حيوانات الصحراء الصغيرة التي تربي وتسمن وتقدم على المائدة مع (الدواجن المألوفة) كان ذلك من الأشياء التي تمارس لتكون مرتزقا

أما الطيور والسماك فقد كانت برك الدلتا ملأى بكثير منها ، وكانت تصاد بشباك ثم تربي للأكل . وقد عثر على بقايا الفخاخ التي كانت مستعملة لذلك . والمقابر ملأى بالرسوم التي تمثل الطيور وقد اتخذ النبلاء صيد الطيور وسيلة للرياضة أيضاً فترى من هذه الرسوم صوراً تمثل النيل في قاربه المصنوع من البردي وهو يصيب الطير بعصاه

وقد أولع المصريون بصيد السمك إذ كان طعاماً أساسياً للأهالي . وكان الصياد يصيده بالشص ؛ أما النيل الذي يتخذ هذا الصيد وسيلة من وسائل الرياضة والتسلية ، فقد كان يصيده برمح . وقد كانت هذه الطريقة في الأصل مستعملة في عصر ما قبل الأسرات كما يستدل على ذلك من الحراب المصنوعة من العظام والنحاس التي عثر عليها الباحثون

هكذا لم يكن المصريون الأوائل صيادين بمعنى الكلمة فلم تدفعهم الحاجة إلى تتبع فريستهم مما يجعل شعب الصيادين متنقلاً غير مستقر ، فقد يفر الأسد وعجل البحر أو النيل من الصيد

عاشت قبائل ليبية لم تقتصر في سكنها على الأقليم الساحلي ، بل زلت أيضاً في الواحات التي تمتد جنوباً داخل أفريقيا ؛ وربما استولى بعضها فعلاً على الجزء الغربي من الدلتا في عصر ما قبل الأسرات . وعلى كل حال كانت هذه القبائل الليبية طول التاريخ المصري القديم تنتهز ضعف الحكومة في مصر أو قيام نزاع داخلي فيها فتنتفض على الأراضي الخصبية التي اعتقدت أنها ميراثها القديم أما الصيد فلم تهدده غزوات تقريباً ؛ إذ ليس له جيران في الشرق ولا في الغرب ؛ ثم إن الصحراء نفسها كانت بمثابة سد منيع ضد أي إغارة من الجهتين

أما من جهة الشمال والجنوب فقد كان من السهل الدفاع عن البلاد بمقدمة حربية لا تزيد على ميل أو ميلين بل لا تريد أحياناً على بضع مئات من الياردات وكانت الدلتا من جهة الشمال سداً منيعاً ضد غزو الآسيويين من الشرق والليبيين من الغرب

أما من جهة الجنوب فإن القبائل التوحشة في النوبة العليا والسودان لم ترعج مصر إزعاجاً يذكر إلا في عهد الفتح بفتح في القرن الثامن قبل الميلاد

على ذلك نرى الأحوال في الصيد كانت تنعم بالاستقرار الذي كان ينقص الدلتا . وفي كل مرة تقع فيها الدلتا فريسة للغزو الأجنبي نرى الصيد بنحو منها ويصل تقدمه السياسي والاجتماعي ، بل يكون على استعداد عند ما تتخلص البلاد من غزاتها الأجانب أن يبعد المياه إلى مجاريها في الداخل والعمل على توسيع ملكها في الخارج

مصر قبل الأسرات

كانت مصر العليا والنوبة قبل قيام الأسرة الأولى في يد جنس واحد له مدينة واحدة ونسبه شعب ما قبل الأسرات . ولا يزال البحث العلمي يكشف لنا شيئاً عن هؤلاء القوم الذين يمكننا أن تتبع حوادثهم في مقابر البداري ، وعند ما نسمع عنهم لأول مرة لازرام متوحشين بل نجدهم قد عرفوا النحاس ولهم فنونهم وحرثهم ؛ وأهم من كل هذا أنهم عرفوا الزراعة واشتغلوا بها وهذه الحقيقة الأخيرة هي أساس فهم حياة مصر الاجتماعية ، فنظامها قائم على الزراعة — ولا نعرف أين نشأت لأول مرة بل ليس من المؤكد أيضاً أنها ظهرت في تلك الجهات مثل

قصيرة قبل ذبحها للأكل أو فر لهم من الاتفاق عليها لاستئناسها
وهنا يجب أن نذكر أن الدجاج لم يعرفه المصريون حتى عهد
الدولة الحديثة عند ما عادت إحدى حملات تحتمس الثالث بأشياء
عجيبة من بينها طيور « تبيض كل يوم بيضة »

على أن الزراعة كانت أهم ما اشتغل به أكثر المصريين على
الأقل في فترات معينة من السنة ، فقد كان النيل كريماً من ناحية
وقاسياً من ناحية أخرى على البلاد : فهو كريم بما يجلبه من غرين
يلقيه على تربة الأرض فيجعل السواد غير ضروري تقريباً ،
وهو قاس لأنه بمجرد أن يتم قمل هذا يأخذ في الانخفاض
فيصعب على الفلاح أن يروى أرضه منه . وإذا كانت مصر
شحيحة الأمطار كانت سعادتها متوقفة على نشاط الزراع
ومجهودهم في رفع المياه من النهر وتسييرها في قنوات وترع إلى
أرضهم . والغريب أن الطريقة التي استعملوها لذلك هي نفس
الطريقة التي يستعملها الفلاح اليوم أي بالشادوف

أهم المحصولات

كانت أهم المحصولات في مصر القديم الشعير والقمح والكتان؛
وكانت طرق الزراعة غاية في البساطة ، فحينما ينخفض ماء النيل
يحرث الفلاح الأرض بمحاريث من الخشب كان يجرها في عصر
الملكمة القديمة التيران ، ثم يدر الجبوب وتدومها الغنم كي تنرسها
في الأرض (وقد استخدمت الخنازير فيما بعد في هذه العملية)
ثم يلي ذلك أسابيع يقضيها الفلاح في العمل بنشاط أمام الشادوف .
فاذا طاب الزرع حصد الفلاح القمح وترك الميدان في الأرض ،
وتقل القمح المحصد في شكل حزم على الجبر إلى الجرن ، وهناك
تدوسه الجبر والماشية ، ثم يذرى في الهواء بمذراة من الخشب
فينفصل التبن عن القمح (الحب) ثم يوضع القمح في الزكائب
وينقل إلى مخازن خاصة تتكون من بناء من اللبن كالقباب له
فتحة صغيرة في أعلاه يصب القمح منها ، وفي أسفل البناء باب
لسحب الفلال حسب الحاجة . وكان الكاتب يشرف على هذه
العملية فيدون في لفائف ورق البردى التي يحملها ما يخرزن من
الفلال زكية وما يخرج منها

وقد استعمل الشعير والقمح في صنع الخبز وعمل الجعة . وزيادة
على هذه المحاصيل كانت هناك نباتات أخرى أهمها الخضر
المختلفة وخصوصاً البصل ، وكان غذاء أساسياً ؛ ثم فواكه كثيرة

إلى النوبة ثم إلى السودان ولكن المصري لم يحاول أن يقتنى أثرها
قد يختلف علماء الأتروبولوجيا في النقطة الآتية : هل
من الممكن لشعب أن ينتقل من طور الصيد إلى طور الزراعة دون
أن يمر بطور الرعى ؟ ولكن هذه المسألة لا تمنينا هنا فالتناجد في
مصر في عهد ما قبل الأسرات ، الزراعة والرعى قائمين جنباً إلى جنب
ولهذا السبب لا يمكننا أن نعتبر المصريين قوماً رعاة بمعنى
الكلمة ، وليست مصر على أي حال بلداً من طبيعتها الرعى . أجل
قد يكون من الجائز أن الزراعة لم تشمل كل البلاد في الزمن العريق
في القدم ، وأنه كانت هناك أرض مغطاة بالأعشاب مخصصة
للماشية . على أي حال فإن أراضي الرعى في عهد الدولة القديمة
كانت قليلة في الصيد لدرجة كبيرة حتى اضطر القوم أن يرسلوا
ماشيتهم في عمدة رعاة إلى الدلتا مدة أشهر الصيف . ولعل هذه
الحال تغيرت فيما بعد وأصبحت كما هي اليوم حيث تربي الماشية
على علف خاص يزرع لها

استأنس المصريون قليلاً من الحيوانات منها الماشية التي
اتخذوا منها اللبن وزودت الأغنياء باللحوم واستعملوها فوق ذلك
وسيلة من وسائل النقل . وإن أهم حيوان في هذه الناحية كانت
الأبل . أما الغنم فلم تقتصر الفائدة على لحومها بل كانت هامة أيضاً
لأصوافها ؛ ثم استعملت الخنازير فيما بعد (للدوس) فوق البذور
بعد بذرها

ومن الحيوانات التي استأنسها المصريون الجدى والكلب
السلوقي والقط ؛ أما الحصان فلم يعرف إلا بعد دخول الهكسوس
مصر . وكذلك ظل الجمل مجهولاً حتى عهد اليونان

وكان للتور أهمية كبيرة كأهمية الجاموسة في العصر الحالي .
وكان الفلاحون يملكون على تسميته بإعطائه خيصة من المعجين إذا
قل غذاؤه الطبيعي . وكان الرجال يحملون البقر بدلاً من أن يقوم
النساء بهذه العملية

وترى في النقوش التي تمثل لنا حياة المصريين (جنباً إلى
جنب) مع الحيوانات الستانة صورة غزالة خجلة ، وكانت هذه
من الأطعمة الفاخرة للأغنياء وقد عملوا على تسميتها بإعطائها
خيصة — كما كان الحال مع الماشية — وايس هناك ما يدل على
أنها ربيت ، بل يرجح أنها كانت تصاد من الصحراء بشباك أو فخاخ
ولم يستأنس المصريون الطيور إذ كانت برك الدلتا ملأى
بالبط على أنواعه ، وأدرت تسموم أن سميتها بالنسب والسميتها في عدة

نجوى للشمس الغاربة

للطبيب الفقيه الفرنسي « بيير لورويس »

P. LAUYS

للاستاذ خليل هندأوى

—>>><<<—

أركاس — أيتها الغادة ذات العينين السوداوين ...

ميلينا — لا تمنى !

أركاس — لن أملكك ، وإنما سأظل بمبدأ عنك يا أخت أفروديت ! أيتها الغادة ذات الفدائر المدلاة كالكنايد ، إننى أقف على حافة الطريق لا أستطيع أن أترشح عنه لا إلى من ينتظروننى ولا إلى من غادرتهم

ميلينا — إذهب ! إنك تنطق عبثاً ، ياراعياً بدون قطع ! وبأسارحاً في الطرق البهمة ! إذا لم تستطع أن تتبع الطريق فخذ خلل الحقول ، ولكن لا تدخل في حقلى يا من لا أعرفك . إذهب وإلا دعوت ...

أركاس — ومن عسى تدعين في هذه المرلة ؟

ميلينا — الآلهة الذين ينتظروننى

أركاس — آه أيتها الغادة الصغيرة ! إن الآلهة هم أبعد عنك منى الآن . ولو أنهم كانوا حولك لما منعوني أن أقول لك إنك جميلة . إنهم يهاهون غفوريين بوجهك لأنهم يعلمون أنه أثر رائعتهم ميلينا — أسكت أيها الراعى وإرح هذا المكان فإن أذى منتهى أن أسمع أية كلمة من رجل . إننى هنا أرمى نعايجى حتى غروب الشمس . لا أريد أن أسمع أصوات الفتيان المارين في الطريق مع ريح المساء .

أركاس — ولماذا ؟

ميلينا — لا أعلم الدبب ، ولكن أى تعلمه خيراً منى ... لم يمر على ولادتي فوق هذا السرير القائم من أوراق الشجر إلا ثلاثة عشر عاماً ، وإنى سأكون غبية جاهلة إذا أغفلت عمل ما يطلبه منى أوى .

أركاس — إنك لم تفهمي أيتها الصغيرة عن أمك الحسنة المائلة المحترمة ... إنها حدثتك عن الرعاع الذين يهبون البراري والعقد

أهمها التمر والتين والعنب ، وكانت تكثر ذرايعه في الدلتا ، وقد صنع المصريون من التمر نوعاً من النبيذ والعرق

نومير القطرين

كانت مصر قبيل الأسرة الأولى منقسمة إلى مملكتين منفصلتين : مملكة الوجه القبلى ومملكة الوجه البحرى . وكانت هاتان المملكتان مقسمتين أمارات لكل منها طوطم خاص كان بمثابة علم الإمارة الذى كان يحمل أمام رئيسه . ومما لا شك فيه أن بعض هذه الرموز كانت اسماً للمقاطعة باللغة الهيروغليفية ، وكان البعض الآخر رموزاً للقبيلة ، ومن هذه الرموز ماهو في شكل حيوان كالأرنب والوعل

ويعتقد العلماء أن أصل هذه الرموز راجع إلى أن مصر كان يسكنها في وقت ما قبائل مستقلة ، كل قبيلة ترمز لنفسها بنوع خاص من الحيوانات أو النباتات يكون معروفاً لجميع أهلها ويميز كل قبيلة من غيرها

وحدث قبل قيام الأسرة الأولى أن انضمت قبائل الوجه القبلى وكونت مملكة واحدة ، وكذلك فعلت قبائل الوجه البحرى ثم قامت محاولات لتوحيد القطرين ، وتم ذلك على يد رجل واحد عرف باسم مينا . ويرجح أنه بقيام الأسرة الأولى انتهى الدور الطوطمى بمدلولاته الاجتماعية ، وأهم ما تركه من آثار مجموعة الآلهة التى في جسم إنسان ورأس حيوان مثل تحوتى ورمز له بطائر أبى منجل ، وسبك ورمز له بالتمساح ، وحوريس ورمز له بالصقر كان اندماج القبائل في كل من الوجهين القبلى والبحرى أمراً طبيعياً ، لأن انتشار الزراعة أدى إلى الرغبة في الاستقرار وإدراك المصلحة المشتركة ؛ أما انضمام الوجهين إلى بعضهما فقد كان أقل ضرورة ، إذ كون كل منهما وحدة جغرافية قائمة بنفسها ؛ ولذلك يرجح أن هذا الضم تم على يد رجل ذكى دفعته أطماعه إلى ذلك . هكذا استطاع مينا أن يوحد القطرين وأصبح الميدان حراً لظهور شعور قوى . ومع أن المصريين حافظوا على ذكر هذا الضم وحرصوا على إظهاره في ألقاب الملك وفي أسماء دواوين الحكومة إلا أن الاندماج كان في الواقع تاماً وأبدىاً فأصبحت مصر منذ ذلك الوقت — عدا فترات الفوضى القصيرة —

أحمد نجيب هاشم

أستاذ بمعهد التربية للبنات

مملكة واحدة

(البتة في العدد القادم)